الزهد

بقلم غسان خلف

٢٠٠٢

الزهد والتزهد في اللغة هو الترك والتخلّي أو الأعراض عن المرغوب والمشتهى كما القول عن الزهد في المناصب؛ وفي الاستعمال الديني الزهد هو التخلّي عن متع الحياة وتخصيص النفس لعبادة الله. في الاستعمال الديني لممارسة التزهد هناك اتجاهان: واحد يحصر الفكرة في الغاية من التزهد اي الاقتراب من الله والعلاقة الحميمة الودودة به، فتتعالى النفس عن رغباتها الدنيا وتنمي رغباتها العليا فيتم قول يسوع: "هنيئاً لمن قلوبهم نقية، لأنهم يشاهدون الله" (مت ٥: ٨).

أما الاتجاه الآخر في ممارسة التزهد فينحصر في وسائل التزهد كالصوم والصلاة ولا يصل إلى الغاية من التزهد ألا وهي استظلال الله أي العيش في ظلّه. لأن وسائل التزهد بما فيها أحياناً من شعائر وطقوس قد تشغل النفس وتجعلها تشعر بالإكتفاء بمجرد الممارسة ولا تتعدى إلى الغاية وهنا يكون التزهد سلبياً، لأن النفس التي لا تُنمي في داخلها الايمان والاتكال الكلي على رحمة الله كيف يمكنها أن تجد قبولاً عنده تعالى؟

وحاول الزهاد مع الأيام إضافة فرض على فرض من التقشفات التي اعتبروها مفيدة لنقاء النفس في اقترابها من الله. فما اكتفوا بالصوم والصلاة بل امتنع بعضهم عن المقاربة الزوجية. ورغب بعضهم في قضاء أوقات طويلة بلا طعام أو نوم وآخرون ربطوا الامتناع عن شرب الماء بالصوم عن الطعام، كما عرض زهاد انفسهم للبرد الشديد أو الحر الشديد، وقام بعضهم بضرب أنفسهم بالسياط أو طعن أنفسهم بمواد حادة تجعل الدماء تنزف وتسبب الأوجاع والآلام.

إن الذين تمادوا في وسائل الزهد إلى هذا الحد ما فهموا قول المسيح: "من أراد أن يتبعني، فيجب عليه أن يتخلّى عن ذاته، ويحمل صليبه ويتبعني. لأن من أراد أن ينقذ حياته يفقدها، أما من فقد حياته في سبيلي وفي سبيل الإنجيل فإنه ينقذها. لأنه ماذا يستفيد الانسان لو ربح العالم كله، لكنه ضيع نفسه" (مر ٨: ٣٤ – ٣٦). إن المسيح يريد منا انكار ذواتنا التي تشدنا إلى مواقف أنانية لكي ننطلق دون عوائق في سبيل خدمة الله والعمل لخير البشر. إن قهر النفس لا يكون بتعذيب الجسد الذي خلقه الله لنعتني به. "لا أحد يكره جسمه أبداً، بل يطعمه ويعتني به" (أف ٥: ٢٩)، بل يكون باتخاذ موقف حاسم أمام الله مدعوم بايمان صادق وتوبة نصوحة عن وعي وإدراك كاملين قوامه الارتضاء بالموت مع المسيح والانصلاب معه فتتم حياة القيامة في النفس لحياة جديدة رغبتها الأولى الله وخدمته.

وهناك انحراف ذهني يحدث إذا تم النظر إلى وسائل التزهد كممارسة يقوم به الانسان لإرضاء الله. فيكثر الانسان من القيام بواجبات دينية غير مطلوبة ظاناً بذلك ان الله يسر به ويرضى عنه. إن الله تبارك وتعالى لا يريد منا شيئاً غير أن نأتي اليه بقلوب صادقة متكلين على لطفه ونعمته واثقين بوعده فيشملنا بواسع رحمته.

يرغب بعضهم في التزهد طلباً لسلطة معينة او مقاماً روحياً معيناً وسط شعبهم فيكثرون من التقشف وإقامة الصلوات والأصوام فيزداد احترام الناس لهم وتقديرهم لتقواهم. وعندما تشيع ثقة الناس بهم يستتب لهم الأمر فيستغلون الثقة الممنوحة لهم بسبب تقربهم من الله ويستعملونها لمنافع شخصية. في هؤلاء يتم ما قاله الكتاب: "يقولون أنهم يعرفون الله، لكنهم بأعمالهم يكفرون به". (تي ١: ١٦).

كذلك من زهد في الدنيا متخلياً عن حلالها أو عن حرامها مخافة أن يحاسبه الله أو يعاقبه أو مترجياً أن يجازيه الله أو يكافئه، يفعل ذلك طمعاً برحمة منه تعالى أو خوفاً من يوم الدين. هذا يعني أن التزهد كان طلباً لمنفعة واجتناء لفائدة وليس رغبة صرفة في الشوق لوجه الله. إن الكتاب يشجعنا على الرغبة في أمور الله وشخصه تعالى بوجدان طاهر لا يخالطه زغل: "من يحق له أن يصعد جبل الله ويقف في بيته المقدس؟ الذي هو طاهر اليدين ونقي القلب" (مز ٢٤: ٣ و ٤).

خلاصة الكلام في الزهد جاء على لسان الرسول بولس الذي وصف الفرائض الدينية النافلة بأنها "مجرد قوانين وتعاليم وضعها الناس وتظهر كأنها وصايا حكيمة بما فيها من نظام صارم للعبادة، وتواضع كاذب، وتعذيب للجسم، لكنها لا تنفع أبداً في ضبط شهوات الطبيعة الدنيوية" (كو ٢: ٢٢ و ٢٣).

إن التركيز على وسائل التزهد دون غايته يحرف الناس عن السبيل إلى الله لذا وجب التوازن السليم بين تأمين حاجات الجسد وحاجات الروح. فإن الروح السليمة تكون في الجسم السليم، وراحة جانب في الانسان تنعكس على الجانب الآخر. وهذا التوازن الداخلي في الكيان البشري ينعكس علاقة سليمة بالله وهذه الغاية هي العليا في ممارسة الزهد.